خلاصة الكلام على السيّدة نصرت أمين

وعلى كتابي عنها الموسوم (**السيدة نصرت أمين عالمةٌ مجتهدةٌ في الزمان الصّعب**) ودوافع تأليفه.

أ.د.دلال عبّاس

كان القصدُ من وضع هذا الكتاب أن يكونَ منطلقاً للدارسين العرب يتعرّفون من خلاله السيدةَ وكتبَها، لدراسة كلِّ كتاب منها منفرداً، ولأنَّ كلَّ كتاب من كتبها يشكل بحدّ ذاته أطروحةً متكاملة منهجًا ولغةً وموضوعًا، وإن كان يجمعها خيطٌ واحدٌ هو شخصيةُ صاحبتها ونهجُها في التفكير وفي معالجة الأطروحات المتنوّعة؛ إنها شخصيةُ عالمة مجتهدة، تبدأ منذ الصغر بتعلم العربية لفهم القرآن، ومن القرآن تنطلق إلى الحقول المعرفيّة الأخرى، وليس العكس، لتصير وهي في الأربعين عالمةً أصوليَّة مجتهدة، تؤصّل لما تقوله بالآيات القرآنية، وبها تُثبت حُجيّة آرائها الفقهية (**جامع الشتات**)، والحديثية (**الأربعون حديثًا**)، والفلسفيّة (**المعاد**) والعرفانيّة (**النفحات الرحمانية**)، و(**مخزن اللآلئ**)، والاجتماعية (**طريق السعادة**)، وفي هذه الكتب كلّها يظلّ القرآن رائدَها في مقام الاستدلال والاستناد، وفيها كلِّها تتجلى بوضوح موسوعيتُها الثقافية وسعةُ مخزونِها المعرفيّ، وتداخلُ المواضيع المختلفة في الكتاب الواحد وتعاضدُها، أي تآزرُ المواضيع الفقهيّة الاستدلاليّة والأصوليّة والأخلاقيّة والوعظيّة والمواضيع العقليّة والعقائديّة والفلسفيّة والعرفانيّة ؛ يعضد ذلك كلَّه عمقُ المعالجة للمواضيع المطروحة، يساعدها في ذلك المنهج الجدليّ المتشعِّب البحوث حيث تطرح على نفسها جملةً من الإشكاليات المفترضة التي يمكن أن يطرحَها الآخرون، وتجيب عنها على نحو منطقيٍّ ممنهج . في **جامع الشتات** الأسئلةُ والإشكالياتُ يطرحها السائلون، أما في الكتب الأخرى فهي التي تطرح التساؤلات والإشكاليات والفرضيّات وتجيب عنها.

من مِيزات معالجتها للمواضيع المختلفة، أنها لا تعيد كلاماً تكون قد قالته في الكتاب نفسه، أو في كتاب آخر لها، بل تحيلُ عليه.

إن كان من غير المستغرب بالنسبة إلى علماء الدين الإيرانيين أنْ يكتبوا باللغتين العربية والفارسيّة، وكلّهم من أصحاب اللسانين، فقد تبيّن لنا أنّ ما يميّز كتبَ السيدة من كتب الآخرين الذين نعرف آثارَ بعضِهم، هو أنها كتبت بالعربية ما هو موجّه إلى الخاصّة {أي علماء الدين وطلبة العلوم الدينية} الذين يعرفون العربية، أمّا الكتب الموجهة إلى العامّة، أو إلى العامّة والخاصّة على حدٍّ سواء فبالفارسية.

لغتُها العربية تسير على نسق واحد في الكتب الثلاثة التي كتبتها بالعربيّة: كتاب **الأربعين حديثاً** و**النفحات الرحمانيّة** و**جامع الشتات**، وليست متفاوتةَ المستوى بلاغيًّا، بمعنى أنها لغةٌ أدبيّة راقية مقارنةً بلغة معاصريها، تخلو من العُجمة، باستثناء ما يتعلّق بقضية التذكير والتأنيث. وقد عَرَفنا من سيرة السيدة أنها تعلّمت العربيَّة على نفسها، وعلى أساتذة إيرانيين أيضاً.

أمّا لغتُها الفارسية فتختلف من كتاب إلى آخر بحسب مستوى القرّاء المفترَضين: ففي كتابها **مخزن اللآلئ**، لغتُها أدبيّة جميلة راقية، أكثرت من استخدام الصور التمثيليّة لتقريب المعاني، ومن الاستشهاد بالأشعار العرفانيّة.

بينما لغتها في كتاب **طريق السعادة** الموجّه إلى النساء، يغلب عليها أسلوب المحاضرة، والخطابِ المباشر، فهي تأخذ في الحسبان مستوى المتلقّيات ومعظمُهن في عصرها محدوداتُ الثقافة. يمكن أن يُدرسَ هذا الكتاب وموضوعُه دينيٌّ ـ اجتماعيٌّ، بمنظار علم الاجتماع الدينيّ، أو علم اجتماع الدين، مع مراعاة انبثاقه من ضرورةٍ فرضتها الظروفُ التاريخيّة ـ السياسيّة في لحظة كتابته، وشخصيةُ السيّدة معلَّمة؛ وفيه مواضيعُ واردةٌ في كتبها الأخرى، لا سيما كتابا

المعاد و **مخزن اللآلئ**، طرحتْها هنا مبسَّطة ليسهل فهمُها ومنها المعاد والإمامة والإنسان الكامل، وفضائل الأئمة وغيرها.

الكتابُ الأكثرُ دلالةً على سعة مخزونها المعرفيّ كتابُ **مخزن اللآلي في فضائل مولى الموالي** علي بن أبي طالب عليه السلام، الذي تتداخل فيه المواضيع التاريخيّة والحديثيّة والفلسفيّة والعرفانيّة بأسلوب أدبيٍّ رفيع.

منهجها الفقهي:

ذكرت السيِّدة في سيرتها أنّها حين بلغت الأربعين من عمرها حصلتْ لها قوّة استنباط الأحكام الفرعية من أدلّتها التفصيلية، فاستجازت من بعض العلماء الأعلام، وبعد اختبارهم إياها في بعض مسائل الأصول والفروع أجازوا لها العمل ممّا استنبطته من الأحكام على الطريقة المألوفة بين الأعلام، وقد أجازوا لها أن ترويَ عنهم ما صحّت لهم روايتُه بالطرق المتّصلة إلى المعصومين عليهم السلام. فحينئذ خرجت نفسُها من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد ومن ذلّ التبعيّة إلى عزّ الاستقلال، واجتمعت بين كمالها الممكن في معرفة المبدأ والمعاد[1].

من قولها: **استنباط الأحكام الفرعية من أدلتها التفصيلية... وخرجت نفسُها من حضيض التقليد إلى أوج الاجتهاد ومن ذلّ التبعية إلى عزّ الاستقلال**، نستنتج أنها من الأصوليّين الاجتهاديّين الذين يقولون بأدلّة الأحكام الأربعة، الكتاب والسنّة والإجماع ودليل العقل، وهذا ما نلاحظه في كتابها **جامع الشتات** الذي جمعت فيه بعد أن تقدَّم بها العمر كتاباتِها المتفرقةَ والرسائلَ والاستفتاءاتِ التي وصلتها من مفكرين وعلماء كبار طالبين منها أجوبةً فِقهيّة تفسيريّة لا أصوليّة فلسفيّة:

وهي في أجوبتها تبدأ من الفرع الفقهي وتؤصّل لما تقوله بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة المرويّة عن النبيّ والأئمة عليهم السلام، وبها تُثبت حُجَّية رأيِها الفقهيّ.

نعطي مثلاً من كتاب **جامع الشتات** لتوضيح هذا القول:

سُئلت عن المراد من الحديث الذي رواه الصدّوق في **الفقيه** و **ثواب الأعمال** أن رسول الله (ص) قال: **من صام يوماً في سبيل الله تعالى كان كعدل سنة يصومها.**

فكان جوابها:

أقول: لما كان صوم يوم كعدل سنة بلا وجه معتدٍّ به **غيرَ معقول** ونحن نعلم بالضرورة أنه لم يكن في كلام المعصوم (ص) جزافاً ولا إغراقاً، فلهذا لا بد من حسبان مزية زائدة في المشبّه والمشبّه به في كونهما عبادة، أي وقوعهما بداعي الامتثال كي يصيران عبادة، وإلا لم يكن فيه وجه شبه أصلاً، إلا على وجه بعيد كما سيجيء، ولو كان التفاوت كتفاوت سنة ويوم فيُحتمل فيه وجوه:

ـ منها أن المراد بصوم اليوم صومُه مقترناً **بالتقوى**، وبصوم السنة عدمُ كونه كذلك، يعني أنّ الصائم إذا كان متَّصفا بالتقوى، يعادل صوم كل يوم منه بصوم سنة إذا لم يكن متَّصفا بالتقوى. ويمكن تصحيح هذا الوجه بقول الله تعالى **[إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ]**.

إلا أنه مع منافاته للإطلاق، لا يكون في الكلام قرينةٌ مجوِّزة لحمله على هذا المعنى، **وحمل الكلام على أحد محتملاته بلا قرينة مجوّزة لا يجوز كما هو ظاهر.**

ـ ومنها أنّ المراد بصوم اليوم صومُه وجوباً، وبصوم السنة صومُها نَدباً، نظراً إلى كون ثواب الواجب أزيدُ ومصلحته ألزم، كما احتمله سيدنا المعظّم، مع إشعاره بأنه مع منافاته للإطلاق وإشعار (في سبيل الله) بالنّدب، واتحاد سياق الصوم في المشبّه والمشبّه به يكون **خالياً من ثمرة معتدٍّ بها.**

[1] المخطوط الملحق بكتاب السيدة، ص 27.

ـ ومنها أنَّ المراد بصوم اليوم، ما احتمله المحدّث القاساني.
كما قال (قده) في (الوافي) في بيان هذا الحديث ما هذا لفظه: «كأنه أراد أنه من صام خالصاً لله عز وجل من غير شوب غرض، مباحاً كان كالحِمية، أو حراماً كالرِّياء، فكأنَّه صام سنة، لم يكن صومه بذلك الخلوص».
أقول: إن كان غرضه من الخلوص خلوصَ العمل من الرياء وغيرِه، وإتيانَه بقصد امتثال الأمر، ـ ولو كان محرّكه على هذا الامتثال الدواعي النفسانية ـ ومن عدمِه عدمُه كما يُستفاد من ظاهر كلامه:
ففيه أنّ صوم سنة لم يكن بقصد الامتثال ولا يكون خالصاً بهذا المعنى ليس فيه فضل ـ لأنه لا يكون عبادة ـ كي يعادل صومَ يوم طاعةً وعبادةً.
نعم، إنْ أرادَ بصوم السنة الإمساكُ لا في سبيل الله، وأنه في الخاصيَّة والأثرِ الخارجيِّ، كصفاء القلب، وطهارة النفس، وظهور الحكمة، يعادل إمساك يوم في سبيل الله، لا من جميع الجهات أي لا يكون المشبّه والمشبّه به من حيث كونُهما عبادة، ولا من حيث الفضيلة، ولا من حيث الأجر متساويين؛ **فله وجه** ويشهد بذلك الأخبارُ المستفيضة الدالّة على فضيلة الجوع والإمساك، وإن لم يكن في سبيل الله تعالى، **وأنّه يورّث الحكمة** ولو كان الممسك كافرًا، كما صرّح بذلك كلّه في حديثِ المعراج.
ولكنه كما مرّ آنفاً، ذلك مناف لسياق الكلام، **لأن من سياق الكلام يُستفاد اتحادُ المشبّه والمشبّه به من كل الجهات لا من جهة واحدة كما لا يخفى.**
وإن كان غرضه من الخلوص بعد اشتراك المشبّه والمشبّه به في كونهما عبادةٌ وطاعة، مزية زائدة على امتثال الأمر في المشبّه يكون وجه الله تعالى وعبوديته فقط ـ وكونه أهلاً للعبادة كما قال أمير المؤمنين وسيّد الموحّدين صلوات الله عليه: «**ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك بل وجدتك أهلا للعبادة فعبدتك**»، لا الأغراض النفسانيّة دنيويَّة كقضاء الحوائج ـ أو أخرويَّة كالفوز بالجنّة أو الخوف من النار.
ثم تقول: في نظري القاصر هذا الوجه وجيه لقرينةٍ مصحّحة في الكلام وهي اشتمالُ الفقرة الأولى بقيد (في سبيل الله تعالى) كما قال صلى الله عليه وآله وسلّم وخلوّ الفقرة الثانية من هذا القيد كما هو ظاهر.
فلعلّ المقصودَ أنَّ من صام يوماً خالصاً لوجه الله تعالى بحيث لم يكن له محرّك لامتثال أمرِه سبحانه إلا معرفته بجلاله وجماله وكونه أهلاً للعبادة كان كعِدلِ سنةٍ يصومُها.
فمن عَرَفَ اللهَ بجماله وجلاله وألطافه الخاصّة اشتاق إليه وأخلص عبادته له سبحانه فأحبّه الله وأخلصه وأدناه قربا معنويًّا ـ فمن كانت عبادته بهذه المثابة فحقيق أن تصير عبادته في كل يوم من حيث فضيلتُها وآثارُها الخارجيّة المترتّبة عليها وثوابُها الأخرويُّ كعبادة سنة إن لم تكن كذلك.
والدليل على أنَّ اتصافَ العمل بالإخلاص غيرُ اتصافه بالعبادة، وأنَّ العملَ الخالصَ هو الذي يكون خالصًا لوجه الله تعالى ما يكون لغيره تعالى مدخليّة فيه أصلًا ـ وأنّ للعمل الخالص فوائدَ كثيرةٍ وأنَّ ثوابَه أزيدُ من غيره ـ **الآيات الباهرات ـ** والأخبار الكثيرة .
نلاحظ هنا كيف تدعم رأيها بنصوص من القرآن والحديث مما يوافق المسألة التي تتناولها بالبحث:
تقول أمّا الآياتُ فمنها قولُه تعالى في سورة الصافّات الآيتان (41) و(74) **[إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ]** و**[أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ]**. ومنها قوله تعالى فيها أيضاً في الآية 169 **[لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ]**، إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على فضيلة الإخلاص في العمل.

وأمّا الأخبار، فمنها ما رواه في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام **«طوبى لمن أخلص لله العبادة»** والحديث النبوي (ص): **«إنَّ كلَّ أحدٍ ينال في عمله ما يبغيه، ويصل إلى ما ينويه كائناً ما كان دنيويًّا أو أُخرويًّا »** إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة.

وبالجملة امتثال أمر الله تعالى في ما ندبَ عبادَه إليه ووعدَهم الأجرَ عليه؛ وإنما يأجرهم على حسب أقدارهم ومنازلِهم ونيّاتهم.

فمن عَرَفَ اللهَ تعالى بجماله وجلاله وأخلص عبادته له، لكونه أهلًا للعبادة، أحبّه الله وأخلصه واجتباه وقرّبه إلى نفسه قربًا معنويًّا، كما قال تعالى في حقِ بعض من هذه صفته **[وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ]**، ولا شك في أنّ ثوابَ عمل من كان كذلك أزيدُ بمراتبَ كثيرةٍ من غيره الذي لا يكون بهذه المثابة.

تقول: **هذا بعد إمعان النظر ما خطر ببالي** في توجيه {تفسير} هذا الحديث والله العالم بحقائق أسرار كلمات أنبيائه وحججه صلوات الله عليهم أجمعين.

وتقول إنّها بعد ذلك لقيت عالماً جليلاً وسألته عن معنى هذه الرواية فأجاب بعد إمعان النظر أجوبة: قالت عنها:

«إن هذه الوجوهَ التي احتملها دامت بركاتُه، في نظري القاصر كلُّها بعيدةٌ، **لعدم الدليل المعتدّ به عليها**، على أنّ سياقَ الحديث آبية عنها».

وتخلص إلى القول: «إنّ أحسنَ الوجوه، في توجيه {تفسير} الرواية هو الذي رجّحناه، وقلنا إنه أقرب إلى المُرادِ من غيره، وقوله تعالى: **[فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً]**. لعلّ المراد من لقاء ربه فوزُه برحمته وكثرة ثُواب عمله وعلوّ درجاته، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته: العلوية الأمينية[2].

حديثياً: كان كتاب **الأربعين حديثاً** هو الكتاب الأوّل الذي نالت على أساسه إجازة الاجتهاد من العلماء والباب الذي وَلَجت من خلاله منازلَ المعرفة، تقول في مقدّمته: إنها أحبّت أن تؤلّف كتابًا مشتملًا على أربعين حديثاً من طرق أهل بيت النبوّة والولاية، ومتضمِّنا لحلّ مشكلاتِه ومعضلاتِه، تأسِّياً بالسلف من العلماء العاملين، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فنظرت وتفكّرت وقالت: إني لم أكن {لست} من فرسان هذا الميدان، على أنّ من صنّف فقد استُهدف، فرأيتُ أنَّ ما لا يُدركُ كلّه لا يُترك جلّه، فجمعتُ الأحاديثَ بعون اللهِ القدير، من مواطنَ عديدةٍ، ومواضعَ شريدةٍ».

هذه الأحاديث التي جمعتْها قطعيةُ السند، فقد كفاها العلماء الذين سبقوها وأصّلوا **علم دراية الحديث** مؤونةَ التعريف بأصحاب السند.

هذا الكتاب فريدٌ من نوعه إن نحن قارنّاه بكتب **الأربعين حديثًا** الأخرى التي تربو على السبعين كتاباً، والذي تتجلى فيه بوضوح ثقافتُها الموسوعيُّة والمنهجُ الاستدلاليُّ الجدليُّ الذي يميُّز كتبَها مجتمعةً، وخلوّ شروحها وتفسيرها من فضول الكلام، علماً أنّها تقف بالتفصيل على المفاهيم الواردة في الأحاديث فتوضّحها ببيان مشعٍّ ولغةٍ متينة، وتنقّب للوصول إلى جذور المعاني ودلالاتِها، ولتستخرجَ المكنونَ فيها. وتُثري بحثَها بذكر تشعّباته المختلفة، من خلال طرحِها لإشكالاتٍ وفرضيِّات تعملُ للإجابة عنها.

الأحاديث الأربعون التي اختارتها من الصحاح في السنن والآداب الدينيّة والأحكام الفقهيّة، وقد حدّدت في أوّل الكتاب الطريقَ الذي اتّبعته في جمع الأحاديث من مواطنَ عديدةٍ ومواضعَ شريدةٍ، ثم أردفت كلّ حديث بشرح المعنى اللغويّ للمصطلحات وللعبارات الواردة فيه، ومن ثمّ موافقتُه لما جاء في القرآن، والمقارنة بينه وبين أحاديث أخرى لها معنى مشابه رُويت عن النبيّ

---

[2] **جامع الشتات**، ص 54 - 61.

أو عن الأئمة؛ وتسير حثيثًا للوقوف على المفاهيم الواردة في الأحاديث فتوضّحها بلغة متقنة، متّبعة منهجًا إستدلاليًّا جدليًّا ، وتطرح تساؤلاتٍ وفرضيّات:
إنْ قلتَ ... قلتُ...

نُعطي مثالاً على منهجها هذا، الحديث الخامس عشر، الذي اخترناه عشوائياً من **الأربعين حديثاً**:

يصل سندُ الحديث إلى الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (قده) عن الحسين بن محمد عن معلّى بن محمد عن الحسن بن علي الوشّاء عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «**إنما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرفه فإنما يعبده هكذا ضلالاً**»، قلت: جُعلت فداك **فما معرفة الله؟** قال: «**تصديقُ الله تعالى وتصديقُ رسوله (ص) وموالاةُ عليٍّ عليه السلام والائتمامُ به وبأئمة الهدى، والبراءةُ إلى الله تعالى من عدوّهم، هكذا يُعرف الله عزّ وجل**».

تبدأ بذكر قول المحقق القاساني (قده) في بعض النسخ: «**فأما من لا يعرف الله**» مظهراً، كأنه أشار بقوله عليه السلام «**هكذا**» إلى عبادة جماهير الناس، و«ضلالاً» تمييز له أو بدل». انتهى.

لتفسَّر الحديث تفكّكه إلى أجزاء تشرحُ كلًّا منها على حدة. لماذا لم يقل عليه السلام من يعلم الله، بل قال «**من يعرف الله**» لأن العلمَ يُطلق على الأعمّ من المعرفة؛ وكدأبها لا تعيد الكلام مرتين، لذلك تُحيل القارئَ إلى شرح الحديث الثالث في الفرق بين العلم والمعرفة، وفي شرحها لعبارة «**فإنما يُعبد هكذا ضلالاً**» فتقول: ذلك لأن العامّة العمياء، ولو كانوا كثيري العمل، ولكن لما ليس لهم ولاية أئمة الهدى، ولم يأتوا البيوتَ من أبوابها، ضلّوا وأضلوا وغووا، إذ ورد عن النبيّ الأكرم (ص) «**أنا مدينة العلم وعليٌّ بابُها فمن أراد المدينةَ فليأتها من بابها**»، وبما أنها لا تحبّ فضولَ الكلام تقول: والأخبارُ الدالّة على ما ذكرناه كثيرة فاطلبها من مظانّها.

وتشرح قولَه عليه السلام، «**تصديق الله**»، وتقول: لا بد في هذه الفقرة {تسمي العبارة فقرة، لأنها فكّكت نصّ الحديث إلى فِقَر} من التقدير في الكلام، فالمراد إما التصديق بوجوده، أو بوحدانيته أو بغيرها من الصفات، أو المراد التصديق بأنّه تعالى جامعٌ لجميع الصفات الكماليّة، وهذا أظهرُ لأنّ لفظة «الله» كما قيل عِلمٌ للذات مستجمِعٌ لجميع الصفات الكماليّة، وليس في الكون موجودٌ كذلك إلا واجب الوجود جلّت عظمته.

وأما قوله عليه السلام «**هكذا يُعرف الله (عزّ وجلّ)**»، لعلّ المرادَ أنّ التصديق برسالة الرسول وولاية الأئمة والاقتداء بهم موجبٌ لحصول المعرفة للعبد بالله تعالى، لأنه بمتابعتهم وبهدايتهم يسلك السالكُ طريقَ النجاة، والأخبارُ الدالّة على ذلك كثيرة. منها ما رُوي عن أحدِهم: «بنا عُبدَ اللهُ وبنا عُرِفَ الله» الحديث، وتقديم ما حقّه التأخير يفيد الحصرَ **فتأمّل**، فظهر لك أن معرفة اللهِ تعالى وعبادَتَه متوقفتان على معرفة الرسول والأئمة والاقتداءِ بهم.

نلاحظ في ما يلي المنهجَ الجدليّ في طرحها الإشكالية (إنْ قلتَ)

فإنْ قلتَ: كيف ذلك وكثيرٌ من العامّة كالغزالي والمولى الرومي {جلال الدين الرومي} صاحب المثنوي، وغيرهما، كانوا من العرفاء مع أنهم لم يعتقدوا بولايتهم وإمامتهم، ويشهد على صدق دعواهم **العرفانَ** كتبُهم وكلماتُهم، فلو انحصر حصول معرفة الله تعالى بمتابعتهم (الأئمة عليهم السلام) لما صار هؤلاء من العرفاء.

قلتُ {هنا تجيب عن السؤال الذي افترضته}: إنّ المعرفة الحقيقية أمرٌ قلبيٌّ لا يمكن لأحدٍ أنْ يطّلع عليه إلا من هو عارفٌ وعالمٌ بما في الضمير، وهؤلاء الذين يُتوهم أنّهم عارفون بالله تعالى، فلعل علمَهم صوريٌّ لا حقيقةَ له، ومجرّد ثبتِ كلماتِ العرفاء في كتبهم لا يُثبت كونَهم من العرفاء، كيف والعارفُ بالله تعالى يعلم بأنّه لا يصدر منه تعالى القبيح، إذ صدورُه منه مُحال، وترجيحُ المرجوح على الراجح قبيحٌ بل محال، وكذلك الترجيحُ من غير مرجّح،

وترجيح أبي بكر على عليّ عليه السلام، مع اعتراف جلّهم إن لم نقل كلّهم بأفضلية عليٍّ عليه السلام منه، ترجيحٌ للمرجوح على الراجح، ومع عدم اعترافهم بالأفضلية ترجيحٌ بلا مرجّح، إذ لم يقل أحد من المعروفين منهم بأفضلية أبي بكر منه عليه السلام. مع أنه يمكن أن يُقال {تعود وتفترض سؤالاً} لعلّ هؤلاء كانوا معتقدين بإمامتهم وولايتهم، ولم يمكن لهم إظهاره للخوف والتقيّة.

هذا السؤال المفتَرَض تجيب عنه بقولها: لا يقال: لم يقل أحدٌ من العامّة بأنّ تعيين أبي بكر للخلافة كان من الله تعالى، حتى يلزمَ ما ذكرتَ من نسبتهم الترجيحَ بلا مرجّح، أو ترجيح المرجوح على الراجح، إلى الله تعالى.

وتعلل رأيها بقولها: لأنه يُقال: ما ذكرت كذلك ظاهرًا، إلّا أنّه في الحقيقة يؤوّل قولُهم إلى ذلك، إذ مستندُهم في خلافة أبي بكر **الإجماع**، ومستند حجّية الإجماع عندهم ما رُوي بطرقهم عن النبي (ص) من أنه قال: «لا تجتمع أمتي على الخطأ» ومعلوم أنّ معتقدَهم في هذه الجهة كمعتقدنا بأنه (ص) **[وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى]**[3] ، فبالنتيجة يسندون خلافته إلى الله تعالى... بعد أن تُكمِل تعليلَها، تعود وتطرح إشكالية أخرى:

فإنْ قلتَ: كيف لا يمكن في الأغلب حصول معرفة الله تعالى إلا بولايتهم وهدايتهم مع أنها لا تثبت إلّا بالأدلّة العقليّة لا النقليّة، وإلا يلزم الدور كما تقرر في محله، فعلى هذا لا نحتاج في معرفة الله إليهم، بل بعد ما ثبت بالأدلّة العقليّة أنّ للعالَم خالقاً مستجمِعاً لجميع الصفات الكماليّة، وأنَّ له رضًا وسَخَطًا، ولا طريق لنا إلى تحصيل رضاه والفرار من سخطه، فتحتاج في تحصيلها إلى شخص النبيّ أو الوصيّ، وأما في أصل المعرفة فلا، وهذه الأحاديث مشعِرةٌ بل ظاهرةٌ في أنّ معرفةَ الله تعالى لا تتمّ إلّا بولايتِهم ومحبّتهم.

وتجيب عن السؤال المفترض: إن قلتُ...

بقولها: قلتُ: الأمر كذلك في أصل العلم، بأنّ للعالم إلهًا مستجمِعًا لصفات الألوهيّة، لأنّ الدليلَ عليه عقليٌّ لا نقليٌّ، وأمّا المعرفة الحقيقيّة بأن يَعرفَ الإنسانُ بنور الباطن وبصيرته خالقَه ويتخصّص ويتميّز عنده من غيره بصفات الألوهية، فلا يمكن غالباً إلا بولايتهم وهدايتهم إيّانا إليه تعالى، والعمل بقولهم ومتابعتهم موجبٌ لتهذيب الأخلاق واتصاف النفس بالصفات الحميدة، فمتابعتُهم موجبةٌ لإشراق نور المعرفة في النفس، كما قال الله تعالى مخاطباً لنبيه (ص): **[قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ]**[4]. ومحبّة الله للعبد موجبةٌ لمحبة العبد إياه تعالى، كما قال الله تعالى: **[فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ]**[5]، ومحبةُ العبد لله تعالى موجبةٌ لازدياد معرفته به تعالى، وأما أصلُ المحبّة فلا يمكن حصولُها إلا بالمعرفة، ولكنّ متابعةَ النبيّ (ص) وخلفائه عليهم السلام سببٌ لازديادِ محبةِ العبد بالله تعالى.

الثاني ـ إن مشاهدة وجودهم وكمالاتهم موجبةٌ لحصول المعرفة بالله تعالى لانحصار طريق المعرفة لجلّ الناس في مرآة وجود الممكنات، وظاهرٌ أنْ ليس في الموجودات موجودٌ أتمّ وجوداً وأكمل كمالاً منهم عليهم السلام، وهم المظاهرُ لجميع صفاته وأسمائه تعالى، **فظهر لك أنّ من لم يعرفْهم لم يعرفِ الحقّ تعالى، ومن لم يعرفِ الحقّ فإنّما يعبده ضلالاً، وظهر سرّ قوله عليه السلام: «بنا عُرف الله وبنا عُبد الله تعالى».**

النفحات الرحمانيّة

---

[3] سورة النجم، الآيتان 3 - 4.

[4] سورة آل عمران، الآية 31.

[5] سورة المائدة، الآية 54.

اسم الكتاب يدلّ على مضمونه:
إنه نفحات وخواطرُ أكثرها متّصل بسلوك السالكين إلى الله المشفقين من خشية الله سبحانه وتعالى ، طريقُها إلى ذلك العقلُ، وقانونُها القرآنُ والسنّة الصحيحةُ المرويُّة عن النبيِّ والأئمّة عليهم الصلاة والسلام:

هي نفسها تقولُ في مقدّمة الكتاب: «ولمّا كان أكثرُها أمورًا إلهاميَّة غيرَ منوطة بأمور نظرية ألتمس من الإخوان المؤمنين أن يُغمضوا عن الخطأ والخلل مهما وجدوا فيها، وليحملوا على الصحة امتثالاً لقول المعصوم عليه السلام (ضعْ أمرَ أخيك على أحسنِه ما تجد إليه سبيلًا، ولا تظنّن بكلمة خرجت من فم أخيك ما وجدتَ لها إلى الخير سبيلًا)، وأن يعرضوها على كتاب الله وسنّة نبيه (ص) والعقلِ السليم من الأمراض النفسانيّة، فإنْ وافقها فذلك مطلوبي الذي أمليتُ الكتابَ لأجله ـ وإن فهموا منه خلاَف ذلك فإنّي بريئةٌ من ذلك فليرفضوه).

تذكر السبب أو الأسباب التي دفعتها إلى تأليف الكتاب، قائلةً إنها قد وجدت في نفسها وروعها في بعض الأيام والساعات إشراقاتٍ قلبيةً ليست مسبوقةً بأمورٍ كسبيةٍ فكريِّة، فتفطّنت أنّها هي النفحاتُ التي أشير إليها في الحديث **«إن للهِ في أيام دهركم نفحاتٍ ألا فترصّدوا لها»**، وأنّها رحمةٌ من ربّها، فأحبّت تدوينَ ما بقي في خاطرها منها كي لا تنساها، ولتكونَ تذكرةً لها، تجدُّد عندما تذكرُها شكرَها لله عزّ وجلّ[6].

وتفترض أنّ هنالك من سينتقدُها ويقولُ إنّ ما ستقوله لا يخلو من تزكية النفس، وتزكيةُ النفس قبيحة، فتردّ بقولها: «إنّ كلّ كمالٍ وبهاءٍ إنّما يكون في الحقيقة لله تعالى وحدَه، والممكن في نفسه وليس ما به أيس أي الممكن من حيث الإمكان، ليس إلا قوّة «صرفة» وعدمًا محضًا، وهو في نفسه فاقدٌ لكلّ كمال، وكلّ ما يتراءى منه من الكمال والبهاء من تجلّيات كمال خالقه، وبروزِ أنوارِ عظمته فـ«**العبد وما في يده لمولاه**» وفي إظهار شيء من الكمالات إظهارُ كمالِ وجود الحقّ وسعةِ رحمتِه وعموم قدرتِه...

وتقول إنّ الغرضَ الثاني من تَسويدها عدة أمور كلُّ واحد منها كاف لتحسينها: **أحدها:** امتثال قوله تعالى [وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ]، فأرادت أن تتحدثَ عن بعض ما منحها ربُّها من السوانح واللوائح والبوارق التي وردت عليها من فضل ربها في أيام دهرها كما تقول؛ **وثانيها:** إعلان مزيد إحسانه إليها طلبًا للزيادة، فإظهار فضل الله نوعٌ من شكره، ومن النعم التي أنعم بها الله عليها **معرفته بطريقٍ لا يحتمل خطر التلبيس. لأنه سبحانه عرّفها نفسَه بالوجدان فاستغنتْ عن إقامة البرهان. وثالثها:** أنها رأت عمومَ الناس إلا من شذّ وندر قد غفلوا عن تحصيل معرفة الله تعالى والسلوك في سبيل مرضاته، ورقدوا في مراقد الجهالة معتذرين بأنّه من غير الممكن معرفةُ الله تعالى زائداً على القدر الذي أخذوه من الآباء والأمهات والعلماء... وتقول إنها أرادت إعلانَ عموم فضله لكلّ أحدٍ كي يعلموا أنّ فيضَه مبذولٌ لخلقه، ورحمتُه قريبةٌ من المحسنين **[إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ]، ورابعها:** تنشيط السامعين وحثّهم على إيثار العبادة وسلوك سبيل مرضاة الله وتقوية رجائهم وترغيبهم في طلب المآرب؛ ذلك أنّها رأت (كما تقول) كثيرًا من الناس كذلك، وعلمت من حالهم أنّهم لا يعرفون من العلوم والمعارف إلا اصطلاحات، ومن العبادات والطاعات إلا هيئات وعادات، وتقول إنّها رأتهم وقد امتلأت قلوبُهم من حبّ الدنيا وزينتِها، وغفلوا عن الحق وطريق معرفته؛ لذلك أحبّت أن تكتسبَ بعضَ الحالات والإشراقات التي أشرقت أحياناً، أي في بعض الأوقات على قلبِها الكمِدِ والظلمانيِّ، كي

[6] النفحات الرحمانية، المقدرة، ص 13.

ينظرَ ناظرٌ فيها، لعلّه يتنبّه ويتعقّل أنّ عرفانَ الحقّ ممكنٌ لكلّ أحدٍ بقدر وِسْعةِ صدره فـ **[لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى]**[7].

تنتقلَ في المقدمة من صيغةِ المتكلِّم إلى صيغة المخاطَب، وتوجُّه كلامَها إلى القارئ مباشرة، وتطلب إليه أنْ لا يظنّ أنّ معرفةَ الحق (بعين اليقين) تنحصر في شخص النبي صلّى الله عليه وآله ، والأئمّة عليهم السلام، وأنْ ليس في وِسعِ أحدٍ غيرِهم معرفتُه بإشراقِ أنوارِ جلاله وكبريائه، لأنّ هذا الظنّ فاسدٌ . صحيح أنّ أعلى مراتب المعرفة مختصٌّة بهم عليهم السلام (وأدلّ دليل على إمكان الشيء وقوعُه)؛ أي أنّ الدليل على ما تقول هو ما حدث معها.

ولأوّل مرّة تتحدث عن نفسِها وعن معاناتها، ليس بقصد كتابةِ السيرة، وإنّما للحديث عمّا كابدته وحيدةً، وعن الغربة المعنويّة التي تعيشها، لتبرئة نفسها ممّا قد تُتّهم به:

تصف نفسَها بأنّها أفقرُ خلقِ الله إلى هدايته وتوفيقه وأحوجُهم إلى إرشاده وتأييده، وأنها تعيش في الدنيا غريبةً وحيدةً، لا تجد لنفسها معينًا مشفقًا يكون لها رفيقًا في طريق السير إلى الله تعالى؛ ـ وأنّها ليست تابعةً إلّا إلى سيِّد الأنبياء (ص)، ووصيه سيِّد الأوصياء عليه وعليهم السلام، وذريتِهما سادةِ الأصفياء عليهم السلام ـ وأنها في مدّة عمرِها إلى حين كتابة هذا الكتاب لم تلتقِ بأحدٍ من المتصوّفة أو بأحدٍ من أهل الله: **تريد أن تبعد عن نفسها تهمة التصوف الطرائقيّ الشائع في عصرها.**

وتقول إنها وُجدت في زمانٍ لم يبقَ من القرآنِ إلا حرفُه أو رسمُه ومن الدين إلا اسمُه، ومن العبادة إلّا عادةٌ وحركة؛ وأنها لا تجد أحداً بإمكانها أن تُظهر له كلمةً ممّا في سرّها وقلبِها، وأنّها ليست كالمتجردين من الأشخاص الذين يدّعون التصوّف والتجرّد، مع أنها تجد نفسها أضعفَ النفوس، وقواها أضعفَ من قوى سائر الناس، بل أضعف من ضعفاء العالم حتى من النملة والذباب وغيرهما من أضعف ما يُتصوّر... وتطلب أنْ لا يتوهّمنّ أحدٌ أنّها تقول بلسانها ما لا يصدّقه قلبُها، وهي ترى نفسها لا تقدر على سدّ احتياجاتِها الضروريةِ من المأكل والملبس، مما تقدر على جمعه النملة الصغيرة... ومع ذلك كلّه تجد من فضل الله ورحمته في قلبها إشراقاتٍ نوريةً وأنوارًا إلهيةً ببركةِ الدين والتمسّك بالشريعة الأحمديّة، وهذا من فضل الله **[لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ]**؛ وتقول إنّ الرجال الأقوياءَ على المجاهدة وكسب المعاني أولى منها بجميع هذه المواهب وأقربُ منها لنيل جميع هذه المآرب، فلعلّ ما كتبتْه يحثّهم على السير في سبيل اكتساب المكارم ومحاسن الأخلاق وقرعِ باب الرحمة، فإن من قرعَ باباً ولَجَ وَلَجَ، ومن طلب شيئاً وَجَد وَجَد.

وقبل أن تبدأ بتدوين ما ألهمها ربّها خلالَ أيام عمرها، وجّهت التماسًا إلى القرّاء والمؤمنين أن يُغمضوا عن الخطأ والخلل... وأن يعرِضوا ما كتبته على كتاب الله وسنّة نبيّه (ص) وعلى العقل السليم من الأمراض النفسانية، فإن وافقها فذلك ما تطلبه، وإن فهموا منه خلافَ ذلك فليرفضوه.

ومنعاً للالتباس وسوء الفهم، تقدّم شروحاً لبعض المصطلحات والتعابير، تعدّها مقدَّمة لما ستعرضه من الإلهامات التي عرضت لها[8] : تضع نصب عينيها ما يمكن أن تُتّهم به فتردّ موجهةً كلامَها إلى القارئ: مهما رأيتَ في خلال بياناتي أني أقول **عرفت الله** أو **وجدت الله.** فليس مرادي أني عرفته ووجدته بكنه ذاته وعلى ما هو عليه، كيف وفي الحديث (**ما عرفناك حق معرفتك**). فالمراد من **عرفان الله** معرفته على قدر الآثار عليه، فمن نظر إلى الموجودات من حيث أنها فعلُ الله تعالى وصنعُه لم يكن ناظراً إلا في الله، ولم يكن عارفاً إلا بالله.

---

[7] م.ن.، ص2.

[8]، **النفحات** ،المقدّمة، ص 7.

وبما أن إدراك الله بالبصر محال... **مهما رأيت** في هذه الوجيزة أني أقول **رأيت الله وشاهدته** إعلم أن المراد من الرؤيةِ الرؤيةُ بالقلب لا الرؤيةُ بالبصر ـ أي رأته عينُ بصيرتي بحقيقة الإيمان ـ فالمراد أنه قد صارت معارفي من اليقين والظهور كالرؤية بالأبصار، ولكنْ رأته القلوب عليه السلام **(لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان).**

وجواباً عن فرضية اتهامها بالغرور تقول إنها لا تزعم أنها بلغت الغاية في ما كُشف لها من المعارف الحقّة والأسرارِ الإلهية، وإنها تعترف بقصورها في المعارف وعجزها عن الوصول إلى أعلاها ـ لأنّ وجوه الفهم لا تنحصر في ما فهمَتْ ولا تُحصى ـ وأنّ الحقَّ أوسعُ وأعظمُ من أن يحيط به العقلُ وأعظمُ من أنْ يحصرَه الفهم، وأنَّ الانكشافَ التامَّ والظهورَ بقدر ما يمكن للبشر الظفرُ به مخصوصٌ بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

وتقول كذلك إنّ هذا القدر اليسير من المعارف التي لاحت عندها لم تكن إلا ببركة الإيمان بما جاء به النبي (ص) وامتثالاً لقوله تعالى **[وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا].** وتقول إن من أراد أن تكتحل عين بصيرته فعليه بتحصيل الإيمان واستحكام أساس المعرفة **أولاً،** وتزكية النفس عن هواها **ثانياً [قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا]،** والعمل بما جاء به النبي (ص)، **وثالثاً:** الاتقاء عن المحرّمات، بل الاتقاء عن مشاهدة غيرِ الحقِ تعالى، **رابعاً:** كي يكون صاحب الفرقان والقرآن كما قال الله تعالى **[إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً]،** أي بين الحق والباطل و**(ذلك أن الله هو الحق وأن ما تدعون من دونه هو الباطل).**

وتفترض أن هنالك من سيتهمها بالقول **بوحدة الوجود،** فتقول إنها لا تذهب إلى القول **بوحدة الوجود،** وإنما ترى أن ليس لغيره سبحانه وجود، وليس غيره موجود أصلاً، ولا تقول بالحلول والاتحاد (حاشا وكلاّ)، بل الوجود عندها كما عند المحققين من الحكماء والمتكلمين أصل، والماهيّة أمر اعتباري انتزاعيّ {مجرد}.

إن الوجود في نظرها حقيقة واحدة، ذات مراتب متفاوتة في الشدة والضعف والتقدم والتأخر: **المرتبة الأولى** وأصلها الوجود الأحدي الواجبي، وهو موجود بنفسه لنفسه في نفسه ـ ولغيره من الموجودات وجود تبعيٌّ ربطيٌّ ظليٌّ متقوٌّم به، وفي المرتبة النازلة {الأدنى} منه؛ وكما أن الممكن في الوجود محتاج إلى علّة موجِدة ـ في البقاء أيضاً يحتاج إلى علةٍ مبقية ـ والممكن مع قطع النظر عن تقوّمه وارتباطه به سبحانه ليس له شيئَةٌ ووجودٌ أصلاً.

وتكمل المقدّمة بذكر إحدى السوانح التي سنحت لها في عمرها كي يستعدّ ذهنُ الناظر فيها لما سيأتي بعدها إن شاء الله:

وأما السانحة فهي التالية:

«اعلم أني في زمان العبادة وأوائل البلوغ كنت حريصة على مطالعة الكتب العلميّة وسماع المواعظ السنيّة، فإذا اشتغلتْ أقراني بالتفريح اشتغلتُ بالمطالعة وتركِ التفريح، وهذا ليس من العقل بل من البطالة والكسالة ولشدة شوقي إليها، كنت أتحمّل سوءَ كلامِهن في الملامة والاستهزاء، وكنت أجدُ نفسي كأنها أعرضت عن اللهويّات وزخارف الدنيا ولا تستأنس بها، بل تعلّق قلبي إلى شيء آخر مع عدم تشخيصه، وعدم تمييز مطلوبي ومحبوبي من غيره.

بعبارة أخرى، وجدت قلبي يتعلّق بشيء مجهول، لكن كنت مهما سمعتُ من عالِم أو واعظ شيئاً من أوصاف الله تعالى مال قلبي إليه ميلاً مفرطاً، وكأنّي صرتُ سمعاً من القرن إلى القدم لاستماعه، وكنت حريصة على استماع صفات الله تعالى ولم أزل كذلك حتى رغبت في تحصيل العلوم العربية فاشتغلت بتحصيل المقدّمات من الصرف والنحو وغيرهما من مقدمات الفقه وشيء من المنطق والحكمة.

والله يعلم عسرتي واضطراري في ذلك، وكيفيّة تحمّلي المشاق من جراحة {تجريح} لسان الأحبّاء واستهزائهم بي، فما ظنّك بغيرهم، ولا ملامة عليهم في ذلك لأنّ اشتغال مثلي بالتحصيل

في هذا الزمان عجيب ، وأعجب من ذلك كوني مصرّة على التحصيل، بحيث كنت في غالب الأوقات مشغولةَ القلب إليه، وما كنت أخاف لومة لائم من ذكر أو أنثى.

وخلاصة الكلام، أني اشتغلت بالتحصيل مدّة مديدة وظننت أنه يوصلني إلى المقصود، وما كان الاشتغال التام بالتحصيل ميسوراً لي حينئذ مع اطمئنان القلب، وعدم تشوّش البال، لأنني في أغلب الأوقات كنت مبتلية بالإياب والذهاب أو بتدبير المنزل، أو بغير ذلك، حتى حصلت لي علوم قليلة، وفي أثناء التحصيل، ربّما رأيت النبي (ص) والأئمة عليهم السلام في المنام، وها أنا على سبيل الاختصار أحدث لك بعض ما رأيته»[9].

هذا الكلام يوحي بأن كل ما ستورده في هذا الكتاب إنما هو عن تلك المنامات أو الرؤى، لكنّ حقيقة الأمر غير ذلك.

فبعد إيرادها لعدد من الرؤى الصادقة من بين عدد أكبر آخر لم تذكره، تقول إنّها روتها ليتهيّأ القارئ روحيّا للاستماع إلى بعض الوقائع التي مضت عليها من الإشراقات النوريّة، وذلك لتنبّه القارئ إلى أنّ السيرَ إلى الله تعالى ممكنٌ لكلّ أحد ولو كان في منتهى الضعف[10].

تقول إن هذه الكشفيات التي ستتلوها إنما تكشّفت لها بمعظمها بعد سنّ الثلاثين أو أقلّ أو أكثر، ولم تبق كلها الآن في ذاكرتها، ولا تاريخ حدوثها، وأنّ ما ستسطّره منها قليلٌ من كثير.

وتقول: إنّ ما أشرق على قلبها في أول الأمر كان كالعلوم النظريّة، أي كصورِ الأقيسة من كونها مركّبة من الصغرى والكبرى، ولكنْ لم تكن مسبوقة بالفكر والنظر على النحو المتعارف وبالتعليم والتعلّم، بل على نحو آخر، أي أنّها كانت تجد القياس بصغراه وكبراه ونتيجته دفعة واحدة.

وتقول أنْ ليس بإمكانها شرحُ تلك الإشراقات الغيبية وما هي وما أنيّتها وكيفيتها لأنّ الأمور الكشفية مما لا يسطّر في الأوراق، لكنها ستبين منها بالقدر الذي يمكنها شرحه.

تطلب إلى القارئ أنْ لا يظنّ أنّها من المظنونات أو من الموهومات، أو أنها اقتبستها من كلمات الحكماء والفلاسفة أو العرفاء والصوفيّة ونسبتها إلى نفسها من دون خبرة ووجدان منها بها (لأنّ بعض الظن إثم)... ومن يعتقد بأن وجدان هذه الأمور ممكن في الجملة، وبأن الله تعالى قادرٌ على كلّ شيء فلا مجال أمامه لاستبعاد إفاضة نورِ رحمته ومعرفته على قلب أضعف عباده. وليعلمْ أنّ للإيمان درجاتٍ عديدةً كما ورد في الأحاديث الكثيرة، وبين العارفين تفاوتٌ كثير، وتقول: إنّها عاجزةٌ عن الظفر بأعلى مراتبه، وأنّ منتهى سيرها في المعارف بتوفيق الله ورحمته، أنّ بعضَ ما علمته من المعارف الحقّة من قبْل البراهين العقلية والنقلية قد وجدته **بالمشاهدة القلبية** أي أنّ معارفَها قد صارت من اليقين كالعيان. وتقول إنّ هذا ليس فيه استبعاد وكيف يكون ذلك، وينبغي أن يجدّ كلّ مؤمن ويجتهدَ كي تصيرَ معارفُه إلى حدٍّ يصل إلى (عين اليقين) ولكلّ أحدٍ استعدادٌ لذلك، وإنْ كان الناسُ بحسب الاستعداد متفاوتين في الغاية، ومن لم يصل إلى ذلك فلوجوه:

(منها) لعكوفه على الطبيعة وتعلّقه بالمادّيّات ومحبّته للدنيا وزخرفها، (ومنها) لتوهّمه عدمَ استعداده لذلك المقام أو عدم إمكانه رأساً؛ (ومنها) لعدم إعلام العلماء إمكانه، وعدم حثّهم على اكتسابه ، بل عملهم على عكس ذلك، أي إعلامهم بأنّه غيرّ ممكن.

وبعد أن تسوّغ موقفَ العلماء هذا تقول إن كتابها هذا لم يوضع لكافة الناس وعامّتهم، بل لمن خَلُصت سريرتُه من رَينِ الأخلاق، واستفتح عينُ قلبه من رقدة الغفلات ،لعلّه يهتدي بالتعمّق في هذا الكتاب ويُميّز القشرَ من اللباب، وينتفع به في أثناء سلوكه قبل التحقّق بغايته...

---

[9] النفحات الرحمانية، المقدمة، ص

[10] النفحات الرحمانية، المقدمة، ص 13.

تذكر بعد ذلك كيف كانت تأتيها هذه النفحات الرحمانية[11]:

«ثم اعلم أني في الأوائل {أول الأمر}، في بعض الأوقات كان يلهمني ربي بعضَ المطالب العلميّة التي لم تكن مسبوقة بشيء عاديّ، كما أنني كنت أتفكر مدّة مديدة في ما تطمئن به النفس من الدليل على أنّ دينَ الإسلام حقّ لا ريب فيه، فكلّما تفحُّصت في الكتب العلميّة ونظرتُ في الدلائل العقليّة والنقليّة كي تطمئنّ بها نفسي ما رأيت منها أثراً ،ولم يزل يختلج في قلبي شيء، وكأن شخصاً غيبيًّا كان يطلب مني الدليل على ذلك، ففي يوم من الأيام، حين اشتغالي بالصلاة عند قراءة التسبيحات الأربع، كأنه انفتح قلبي وألهمني ربي فتنبّهت بأنّ هذه الكلماتِ الأربعَ مع وجازتها واختصارها، كيف تنطوي على لبّ الحكمة ولباب المعرفة وجوهر العلم وحقيقة التوحيد، فحينئذ تنبّهت وانكشف لي اندراجُ جميع أوصاف الجلال والجمال فيها مع وجازتها، فلئن اجتمعتِ الأنسُ والجنّ على أن يأتوا بمثل هذه في بيان صفات الله تعالى، لا يمكنُ لهم أقلّ من ذلك، **ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً**»... وبعد أن تشرحَ ما يُستفاد من «سبحان الله» و«الحمد لله»، و«لا إله إلا الله» و«الله أكبر».... تقول:

«العجب أنّي في الأيام التي كنت أنظر في الأدلة وما أطمأن قلبي بشيء منها قرأت هذه الكلمات في الصلوات مراراً عديدة، وما تنبّهت ولا عرفت أسرارَها إلى أنْ أراد الله تعالى أنْ يُلهمَني بذلك، فالعمدة في الإعجاز كيفية تركيب هذه الكلمات وتأليفِها»[12]...

على هذا النسق يجري ذكرها لغير ذلك من النفحات الرحمانيّة، مؤكّدة في كل آن على أنّ ما توصّلت إليه من فهم لمعاني عبارات قرآنية، إنما كان بإلهام من الله عز وجل ونور أشرق في قلبها، تقول مثلاً إنها فكّرت كثيراً في كيفية **معيّة** الحق سبحانه للموجودات في قوله عزّ من قائل **(وهو معكم أينما كنتم)** وبقيت تفكر في الأمر مدّة من الزمان، وأصيبت بالحَيْرة، وما وجدت احداً تسألُه عن كيفيّة معيّته سبحانه مع الموجودات،... حتى منحها ربّها كما تقول، وانفتح قلبُها بنور الإيمان وانشرح صدرها بحقيقة الإسلام، وانكشف لها في الجملة أي بقدر سعة قلبها كيفية معيّته تعالى مع خلقه إلخ...

تقول: «**وبالجملة إني عرفت ووجدت أنّ كلّ شيءٍ مرتبطٍ ومتعلِّق به تعالى بأشدّ الارتباط والتعلق مع أنّه سبحانه باعتبار ذاته وحقيقته لا يتعلق بشيء، ولا يكون في شيء، ولا يحتاج إلى شيء (وليس كمثله شيء)، و(الله هو الغنيّ الحميد)**[13].

في نفحة أخرى تسميها «**واردٌ قدسي**»[14]:

في شرحها لقوله تعالى **[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلاَ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ]** تقول:

«أيها الإخوان من المؤمنين والمسلمين اعلموا أنه ثبت بالعقل والنقل أن الله تعالى قائم بذاته ومقوّم لغيره، فالموجوداتُ متقوِّمات به، بمعنى أنّ الموجوداتِ لا تكون مستقلّة بذاتها بل هي متقوّمة ومرتبطة به، كما قال عزّ من قائل (الله لا إله إلا هو الحي القيّوم)، وقوله تعالى **[يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ]**، فإياكم والغفلة والجهالة وترك التدبّر في الآية

---

[11] النفحات الرحمانية، ص 16.

[12] النفحات الرحمانية، ص 18.

[13] النفحات الرحمانية، ص 19 - 21.

[14] م.ن.، ص 32 - 42.

والاقتصار على ظاهر ما يُفهم من لفظها من غير تفكّرٍ وتعمّق في معناها، وفي ما به يزداد إيمانكم ويقينكم وقد قال تعالى **[أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا]**...

وتقول: **واهتموا بتقوية نفوسكم وتكميل دار الآخرة التي لا سبيل إليهما إلا بالمعارف الإلهية والحِكَم الربانية، ومراقبةِ الأعمال الزاكية، ولا تحصل المعرفة ولا تتمّ إلا بالنظر في الآيات الآفاقية والأنفسية كما قال الله تعالى (سنيريهم...). فانظروا إلى ما ترون وتعقّلوا وتدبّروا في ما عندكم، فأقربُ الموجودات إلينا الجسمُ وهو الذي تصوّرنا أنّه موجودٌ مستقلٌ في الخارج وتصوّرنا أنّه بنفسه منشأ للآثار مع أنه ليس كذلك ،بل هو في ذاته ونفسه محفوفٌ بالعدم أي متّصف بالعدم الذاتيّ، وهو العدم المجامع أي اللاضرورة الذاتيّة. ولست أقول إنه معدومٌ مطلقٌ بل أقول وإن كان في النظر الحسّي موجوداً، لكنْ في النظر الدقيقِ العلميّ، ليس له حظٌ من الوجود الاستقلاليّ والوجود النفسيّ، بمعنى أن وجودَه وجودٌ ربطيٌّ ظِلّيٌّ تبعيٌّ لا استقلاليٌّ، وكذا الكلام في العقل والنفس**».

وبعد أن تتحدَّث عن طريقة التفكّر والتدبّر في الموجودات، وتشرحَ معنى الإمكان في الوجود والماهيّة، وارتباط الموجودات بواجب الوجود تصل إلى القول:

«... من جميع ذلك يظهر للّبيب العارف أنّ الحقَّ تعالى هو المنفردُ بالوجود الحقيقيّ، وهو عينُه، ووحدتُه وحدةٌ حقيقيّةٌ وهي عينُه، وغيرُه من الممكنات موجودٌ بالانتساب إليه تعالى، والارتباطِ به ارتباطًا خاصًّا مجهولَ الكنه غيرِ الحاليّة والمحلّيّة والعَرَضية والمعروضيّة وغيرِها مما يُتصوّر في الممكنات، وينتسب بعضُها إلى بعض آخر، بمعنى أنّ للموجودات ارتباطًا خاصًّا بحيث أنّ تلك الموجوداتِ لا تستقلّ بأنفسها، ولا تكون أمورًا مباينةً بالكلّيّة لذات الوجود الحقيقيّ تبايناً بالعزليّة، كما قال مولى الموالي أمير المؤمنين عليه السلام (توحيده تمييزه، وحكم التمييز بينونة صفة لا بينونة عزلة) بل هي في هُويّاتها تابعةٌ للغير، فلهذا لا يمكن أن يُشار إليها إشارة عقليّة مستقلّة ممتازة عن الغير، «فلا هو إلا هو».

فمن شاء أن تكتحل عينُ بصيرته بالعلم والمعرفة يجد نفسه مظهراً لتجليات أوصاف ربه فعليه أن يطهّرها من الأدناس الطبيعية ويقطعَها عن غير الحقّ تعالى، وبتمام الهمّة يتوجّه إلى جنابه مع قصد خالصٍ غيرِ مشوبٍ بالأعراض النفسانيّة وعليه بالمجاهدة التّامّة مع نفسِه ".

[]